إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد العاشر – صيف ١٣٩٢ش/ حزيران ٢٠١٣م
صص ١١١ ـ ٩١

الرثاء فى شعر الشريف الرضى

محمد إبراهيم خليفة الشوشترى*
محمد حسن امرایی**

الملخص
استطاع الشريف الرضى بشاعريته الفذة القوية، وبلاغته الأصيلة، وقدرته الباهرة أن يبرز فى مقدمة الفحول من الشعراء، لاسيما فى الرثاء والبكاء على الأهل، والأقارب، والأحباب ووصف تقلبات الزمان، وظهرت قصائده فى الرثاء مليئة بالمشاعر الجياشة. وجدير بالذكر أنّ قصائده فى رثاء الحسين(ع) مثال كامل احتذاه الشعراء من بعده لبيان مظلومية أهل البيت(ع) وفاجعتهم بمقتل الإمام الحسين(ع) وكانوا يحفظون وينشدون أشعاره الرثائية. إنّ مراثى الشريف الرضى –مع قلّتها– جعلته بارزاً بين معاصريه وشعراء الشيعة. تدرس هذه المقالة الرثاء عند الشريف الرضى وتثبت أنّ الرضى من أحسن شعراء الرثاء بلامنازع فى العصر العباسى، وأحسن تصرفاً فيه.

الكلمات الدليلية: الشعر العربى القديم، العصر العباسى، الرثاء، الشريف الرضى.

*. جامعة الشهيد بهشتى، طهران، إيران. (أستاذ مشارک)
**. خريج أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، طهران، إيران. m.h.amra@gmail.com
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩١/١١/٢١ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٢ش

المقدمة

قبل أن نتوغل فی موضوع البحث جدير بالذكر والتنويه أن نقول إنه شهد الأدب العربی فی عصوره المختلفة، العديدَ من الشعراء والشخصيات اللامعة فكان لهم دورهم وتأثيرهم فی آفاق الأدب العربی وكانت إحدى هذه الشخصيات والشعراء الكبار فی العصر العباسی الثانی (٣٥٩-٤٠٦) العالم الأريب والفاضل الأديب الشريف الرضی الذی امتاز بآثاره القيمة العلمية والأدبية، وبمكانته السامية. وهذا ما دفعنا فی هذه المقالة إلى دراسة الرثاء فی شعر الشريف الرضی من خلال ديوانه معتقدين «أن الرثاء ينظمه الشاعر على الوفاء فيقضی بشعره حقوقاً سالفةً بينه وبين الميت أو يعبر الشاعر برثائه عن مشاعره الحزينة التی أحس بها عندما أصابت المنية من يكون عزيزاً ومحبوباً لديه.» (الرافعی، ١٩٧٤م: ١٠٧/٣) فاختيارنا هذه المقالة، يرجع إلى السببين الرئيسين أولاً: لأجل شخصية الشريف الرضی الذی تميز بالتقوى، والورع، والمنزلة الدينية، والاجتماعية، والسياسية بسبب نشأته الأسرية العظيمة الدينية، ثانياً: اشتهاره بأشعار الرثاء أكثر من كلّ أغراضه الشعرية بحيث نستطيع أن نسمّيه شاعر الرثاء بلا منازع، حيث انتشر صيته فيه.

تحتوی هذه المقالة على ثلاثة محاور: يتعلق المحور الأوّل بحياة الشريف الرضی وأدبه بصورة موجزة وذلک للتعرف على الشاعر وشخصيته فی عصره بشكل مختصر. و يختص المحور الثانی بالرثاء لغة واصطلاحا. والمحور الثالث يتطرق إلى الرثاء عند الشريف الرضی وأقسامه وكيفية استخدامه.

ترجمته وآفاقه العلمية والأدبية

«هو أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علی بن الحسين بن علی بن أبی طالب عليهم السلام، المعروف بالموسوی نقيب الطالبين وكان يلقّب بالرّضی ذا الحسبين. (الثعالبی، ١٩٨٣م: ١٥٥/٣) لقّبه بهاءالدولة بن بويه بالطاهر الأوحد، والطّاهر ذی المناقب. (ابن أبی الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١) وكان يتولى نقابة الطالبيين، و إمارة الحج، و النظر فی المظالم. (ابن الأثير، ١٩٦٦م: ٤٨/٢، ابن الجوزی، ١٩٣٩م: ٢٤٧) وأمه فاطمة بنت حسين بن أبی محمد الحسين الأَطروش

بن علی بن حسن بن علی بن عمر بن الإمام علی بن أبی طالب (ع). (ابن أبی الحديد، ۱۹۶۵م: ۳۲/۱) وهی امرأةٌ جليلة القدر وقد ألف الشيخ المفيد (ره) كتابه أحكام النساء لِأنَّها أوصته به ويُنشِد الشريف فی شأنها (الشريف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۹/۱):

لَـو كَانَ مِثلَـکِ كلُّ أمٍّ بـرةٍ   غَـنَيِ البَنُون بِهَـا عَن الآباءِ

انحدر الشريف الرضی من المحتد الأصيل، ينتهی من أب إلی الإمام موسی الكاظم(ع) ومن أمّ إلی الإمام الحسين بن علیّ(ع) وكان علوی النسبين ولذلک لقّبه بهاءالدولة بن بويه بالرضی ذا الحسبين وذا المنقبتين. (ابن أبی الحديد، ۱۹۶۵م: ۱۱/۱)

كان مولده ببغداد سـنه تسع وخمسين وثلاثمائة. (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۵۵/۳) وكانت ولادتـه خلال فترة المطيع لله وحكم عزّ الدولة البويهی. (ابن الأثير، ۱۹۶۶م: ۱۰۳/۵) نظم السّـيد الشريف الرضی الشعر وعمره عشر سـنوات. (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۳۶/۳) جاء محلّقاً فی سماء الشـعر محرزاً قصب السـبق وأَجاد فی جميع أغراض الشـعر العربی وهـذا يدلّ علی غزارة مادته. كان ينظم قصائده لِمنحة نفسـانية قلّما تؤثر بها العوامل الخارجية. كان أبوه جليل القدر عظيم المنزلة فی دولة بنی العباس ودولة بنی بويه وكان من الأجلاء وبهذا توفّرت للشـريف أسـباب النعمة وطلب العلم، فكان لابدَّ له من أن يتعلّـم أنواع المعـارف منذُ صغره، كمـا درس اللغة علی يد ابن جـنی والفقه علی يد شـيخ الإمامية وعالمهما الشـيخ المفيد. (ابن ابی الحديد، ۱۹۶۵م: ۱۳/۱-۱۴) وأحضر الشـريف الرضی إلی ابن السـيرافی النحوی وهو طفل لم يبلغ سنين ولقّنه النحو. (ابن خلكان، لاتا: ۴۵/۴) ولذلک تمكن الشريف من استيعاب العلوم العربية، وعلوم البلاغة، والأدب، والفقـه، والكلام، والتفسـير، والحديث بكاملها فی مدة وجيـزة، وينطلق إلی البحث، والتدريس، وقول الشعر وهو فی أخريات العشر الأول من عمره. يقول الثعالبی عنه: «ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل.» (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۳۶/۳)

جديرٌ بالذكر أن نشـير إلی الاغتراب كعنصر أساسـی لِلرثاء فی حياة الرضی «كان أبوه نقيب الأشـراف الطالبيين فصارت إليه النقابة وأبـوه حَیٌّ وتولی معها إمارة الحَجّ والمظالم؛ وهو أول طالبیٍّ جُعِل عليه السـواد.» (البسـتانی، ۱۹۸۶م: ۱۷۷/۳) لعلّ هذه الأمور فی حياة الرضی أدت إلی حسادة ونمامة الحساد وبالتالی أَدت إلی اغترابه، إلی

حَد يشكو هو نفسه من حياته ويقولُ (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٥٨/١):

وَمَالِىَ طولَ الدَّهرِ أَمشِى كَأَنَّنى   لِفضلِىَ فِى هذا الزَّمانِ غَريبُ

ترتبط هذه الحســادة فى بعض الأحيان بأقربائه حتى لا يبقى أقرباؤُه بلا نصيب من هذه الحســادةِ، و الشريف الرضى فى بعض أشعاره يشير إلى هذا الحِقد والكراهية بينه وبين أخيه (المصدر نفسه: ٩٦/١):

وأَخٍ حُرِمتُ الوُدَّ مِنهُ   و بَينَنا نَســبٌ قُرابُ

فى نهاية المطافِ «تُوُفِّى الشــريف الرضى يوم الأَحد الســادس من المحرم سنة ست وأربعمائة ودفن فى داره بمســجد الأنباريين إحــدى ضواحى الكرخ "الكاظمية" اليوم. (عمر فروخ، ١٩٧٩م: ٥٩/٣) عندما مات الشريف الرضى رَثاهُ كثيرٌ من الشعراء، ولكنَّ أوّل شــاعر رثاه هو أخوه السيد المرتضى الذى نظم مرثية الفراق بهذا المطلع (الشريف الرضى، ١٩٩٧م: ١٣/٢):

يا لَلرِجال لِفُجعَةٍ جَذَمت يَدِى   وَوَدَدتُ لَو ذَهَبَت على بِرأسِى

ورثــاه تلميذه مهيــار الديلمى بقصيدة يحفظها أكثر الأدبــاء (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٢٣١/٢؛ والشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٤٩/١):

أَ قُرَيــشُ لا لفَــمٍ أَرَاكَ ولا يــدِ   فَتَوَاكلِى،غَاضَ النَدَى وخَلاالنَّدِى

إِنَّ شعر الشــريف الرضى يُعطينا صورة صادقة لسمات شخصيته من ناحيةٍ وسمات عصره من ناحية أخرى بحيث إنّ أشعاره تُعيننا على فهم كثير من أحداث عصره. يمتاز الشريف الرضى بشعره ونثره، و بمكانته فى علوم البلاغة حيث كشف عن مجازات القرآن الكريم والحديث الشريف.

يقول الباخرزى عن شــعره: «كان شعره تغنيّاً بحبّه وآلامه ونشيداً من أناشيد الفخر والعزة.» (الباخرزى، ١٩٨٥م: ٢٩٣/١) هو شــاعرٌ شيعىٌ مشبوب العاطفة يقول الشعر إرضاءً لنفســه وينبع شــعره من ينابيع وجدانه ولم يتخذه وســيلةً للكسب. (عمر فروخ، ١٩٧٩م: ٥٩/٣) لم يقبــل صلــة من أحــد ولا جائزة وردّ صلة أبيــه. (ابن ابى الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١) «لقد كان الناس فى عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، أمّا هو فكان يتفقه ليســود. كان الشعراء فى عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظَوا بأعطيات الخلفاء، أَما هو

فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسی من عروش الخلفاء.» (زكی مبارک، ١٩٣٨م: ٤٨/١) كما يقول حنا الفاخوری: «لم يقبل صلة من أحدٍ ولا جائزة وكان يُرشح نفسه للخلافة.» (حنا الفاخوری، ١٣٧٨ش: ٤٩٣)

الشريف الرضی شاعرٌ مقتدرٌ وفقيهٌ عالمٌ ولذلک لُقِّبَ بالشاعر الفقيه؛ لِأنَّه إلی جانب الاستدلالات العلمية والفقهية كان يستفيد من سلاح الشعر لبيان أغراضه ومقاصده ولذلک حُساده فی أيام عمره القصير لم يستطيعوا أن يمنعوا من ازدهاره العلمی والأدبی. إنَّ الشريف الرضی قد تأثر فی أشعاره بالمتنبی لا سيما فی شكاواه من الزَّمَن وكان يری ويعتقد أنَّ الزّمان سبب فشله فی الوصول إلی الخلافة ولذلک اُصيبَ بخيبَة أمله وهو فی هذا الصعيد شبيهٌ بأستاده المتنبی؛ لِأنَّ المتنبی كان يسعی فی تأليف دولة عربية كما أنَّ النزعة القومية العربية فی شعره مشهودةٌ، والشريف الرضی أيضاً كان يفكر بالخلافة ولكن كلاهما أصيبا بخيبة الأملِ. (شوقی ضيف، ٢٠٠٧م: ٣٧٢/٥)

هو شاعر الحكمة ولا يعمدها كما يقول الدكتور زكی مبارک: «فقد أستطيع أن أجزم بأنه فی هذه الناحية أشعر من اُستاده المتنبی؛ لِأنّ المتنبی كان يقصد إلی الحكمة قصداً ويتعمدها وهو متكلفٌ، أما الرضی فكانت الحكمة تسبق إلی خاطره من فيض السجية والطبع فيرسلها عفواً بلا تصنع ولا اعتساف.» (زكی مبارک، ١٩٣٨م: ٢٤/١) وحكمته مطبوعة بطابع نهج البلاغة والقرآن الكريم لأنّه كان مُعِدّ نهج البلاغة ومفسر القرآن الكريم.

قد خصّ الشريف الرضی قسماً آخر من ديوانه بالفخر وفخرياته قد جاءت فی أثناء قصائده أو بشكل قصائد مستقلة، فعلی أی حال «شعر الشريف الرضی فی أیّ نوعٍ كان تسوده روح الفخر وعزة النفس والشكوی من الزّمان والشيب، قلما تجد له قصيدة فی مدح كانت أو رثاء أو فی غيرها إلا رأيت روح الفخر تَرشَّح فيها.» (البستانی، ١٩٨٦م: ١٧٧/٣)

إنّ شعر الشريف الرضی كان سبباً فی انطفاء حرارة طموحه إلی المعالی ولم يتكئ عليه لغرض المدح أو الثناء، إنَّما انقاد إليه لضرورة الفارضة التی حملته إلی هذا الاتجاه نحو تحقيق طموحه وغاياته و«إلا فهو أحد علماء عصره قرأ عليه أجلاء الأَفاضل.» (ابن عنبه، لاتا: ٢٣٢)

يقول ابن سـينا: «الشـعر لا يتمّ إلا بمُقدمات مُخيلة ووزن ذى إيقاع متناسب ليكون أسرع تأثيراً فى النُفُوس.» (ابن سينا، ١٩٦٩م: ٢٠) يوجد فى شعر الشريف نماذج رائعة تؤيد كلام ابن سـينا لاسِّـيما فى نظمه قصيدة سمَّاها بـ «العَصمـاء» ومنها البيت التالى الذى نكتفى به دليلاً على ذلك (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٩٣/٢):

يا ظَبيَةَ البَانِ تَرعَى فِي خَمَائِلِهِ لِيَهنَکِ اليَومَ أنَّ القَلبَ مَرعَاکِ

يقـول زكى مبـارک عن أبيات هذه القصيدة: «يرينا الشـاعر فى هـذه الأبيات أن الحلاوة فى عيون النسـاء أمتـع من الحلاوة فى عيون الظباء والحـق فى هذه القضية أنّ عيـون الغزلان فى غاية من الروعة، ولكنها محرومة من صفة أساسـية فى عيون الملاح، وهى الإفصاح؛ ذلک لِأنَّها تتمتع بصفة الإفصاح فعين الظبية تروعک، ولكنَّها لا تحدّثُ، أمـا عين المرأة فتروعک وتُفضى إليک فى لحظة بألف حديث وحديث.» (زكى مبارک، ١٩٣٨م: ١٣٩/٢) ولعـلّ الشـريف قصد إلـى ذلک حين قال: فـكان الفضل للحاكى (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٩٣/٢):

حَکَت لحِاظُک مَا فِی الرِّیمِ مِن مُلَحٍ یومَ اللِقَاءِ فَکَانَ الفَضلُ لِلحَاکِی

التعريف بفن الرثاء لغة واصطلاحاً

١. الرثاء لغةً:

يقـال رثى فلانٌ فلاناً يرثيه مرثيـةً إذا بكاه بعد موته قال: فإن مدحه بعد موته قيل رثّـاه يرثيـه ترثيةً ورثيتُ الميّت رثياً ورثاءً ومرثاةً ومرثيـةً ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيتهُ ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعدّدت محاسنه وكذلک إذا نظمت فيه شعراً ورثت المرأة جعلها ترثية ورثيته ترثاة رثايةً فيهما. (الزبيدى، ١٤٢٢ق: مادة رثا)

٢. الرثـاء اصطلاحاً: هو تعداد خصـال الميت والتفجع عليه بمـاكان يتصفه به من صفات كالكرم، والشجاعة، والعفة، والعدل، والعقل، وإظهار الحزن، واللوعة، والحسرة على فقدانه شعراً كان أم نثراً. يستعمل الرثاء بحتمية الموت كما يقول طرفة بن العبد فى فلسفته الشخصية المتناقضة التى تصطبغ بصبغة اليأس (الزوزنى، ٢٠٠٦م: ٩٠):

لَعَمرُکَ إنَّ المَوتَ مَا أخطَأَ الفَتَى لَکالطِّوَلِ المُرخَى وثِنیاهُ بِالیَدِ

الرثاء عند الشريف الرضى

من يلاحظ أشــعار الرضى يرى أنّه أمام شــاعر كثير البكاء علــى الراحلين، كثير التعزية لأقاربه وأصدقائه ممّن فقدوا أحبابهم. إنَّ الشــريف الرضى كما جاء فى ترجمته كان كثير الصلة على حســب مقتضى حياته بكبار الرجال ممّن يعاصرونه ومن الطبيعى أن يســتمرّ هذه الصلة بعد موت هولاء الكبــار ويتذكرهم ويرثيهم ويتألم لفقدهم لذلک كان الرثاء متنفساً لِآلامه، وأحزانه، ووفائه، وإلحاحه فى التحسّر على فقدهم. قد لفتت كثــرة مراثى الرضى، الّتى بلغت إحدى وثمانين قصيــدة ومقطوعة، بحرارة عاطفتها نظرَ الأدبــاء والمؤرخين، قال الثعالبى: «وهو أشــعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شــعوائهم المفلقين. ولو قلت أنّه أشــعر قريش لم أبعد عن الصدق.» (أحمد حســن الزيات، لاتا: ٢٠٨) ثم قال بعد ذلک: «لســت أدرى فى شــعراء العصر أحســن تصرفاً فى المراثى منــه.» (الثعالبى، ١٩٨٣م: ١٣١/٣) «إنّ تفجع الرضى لم يكن محدود الإطار ضيق النطاق، ينحصر فى الأصدقاء والأقرباء المعروفين فحسُــب، بل كان يتفجع ويبكى حتّى الّذين لم تربطه بهم صلة وثيقة أو علاقة ودّية صميمة.» (عزيز، ١٤٠٦ق: ٤٤) وهنا نستطيع أن نقول «لعلّ أكبر عنصر متغير فى مراثى الرضى هو ملائمة لمقتضى الحال فإن كان الراحل فارساً أو كاتباً أو شيخاً نحوياً، أو أستاذاً فقيهاً أو متكلماً أو شاعراً، رجلاً كان أو امراة، حضرياً أو بدوياً، فإن رثاء الرضى يراعى ما يلائم شخصية الراحل من حدود وأوصاف ويزيد على ذلک التزام شــیء من الأسلوب قد يليق بالبدوى أكثر من الحضرى (كما هو الحال فى مراثيه لصديقه البدوى ابن ليلى) وبالفارس أكثر من الكاتب، من هنا نرى أن الرضى جدّ فى المعانى والأسلوب على حد سواء.» (أبوعليوى، ١٩٨٦م: ٥٨٢/٢) إنّ الشــريف الرضى فى قصائده الرثائية لم يفرق بين الأفراد من حيث المنزلة السياســية والاجتماعية بل تزداد مراثى الرضى حرارة وحزنا عميقا على قدر علاقته بالميــت والتصاقه بموّدته وصداقته، كما نراه يرثى أبا إســحاق الصابى رغم الاختلاف الديــنى بينهما، بأبلغ الرثاء ولم يأبه لنقد الناقديــن؛ لأنّ الصابى من أصدقائه المخلصين وهو الّذى طالما أثار فى نفس الشــريف الطماح نحو المجد والخلافة وجعله يرمى ببصره نحو آفاق سامية ولذلک رثاه الرضى لما توفى ببغداد عام ٣٨٤ق، كما رثى أباه بأسلوب

حزين ثائر، بقصيدته المشهورة التی أولها، قوله (الشريف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۲۹٤/۱):

أعَلِمتَ مَن حَمَلُوا علی الأعوَادِ   أرَأَيتَ كَيفَ خَبَــا ضِياءُ النَادِی

لم يكن الرثاء عند الشــريف الرضی مقتصراً علی الرجــال المرموقين البارزين، بل كان يرثی حتی المغمورين من أصدقائه ممن لم يشــغلوا مناصب هامة. كما نلاحظ رثاءه لصديقــه البــدوی أبی العوّام فی ســنة ۳۹۳ق بقصيدة، هذا مطلعها (الشــريف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۸۲/۱):

أُدارِی المُقلَتَينِ عَن ابنِ لَيلَی   ويأبَــی دَمعُهــا إلّا لجاجَــا

إنّ ديوان الرضی مشــحونٌ بقصائد الرثاء وكان الشــاعر معروفا بالرثاء واشتهاره بالرثاء أكثر من كل أغراضه الشعرية بحيث نستطيع أن نقول إنّه شاعر الرثاء بلا منازع، يقــول عنــه ابن أبی الحديد فی مقدمــة نهج البلاغة: «وإن قصد فی المراثی جاء ســابقاً والشعراء منقطع أنفاسها علی إثره.» (ابن أبی الحديد، ۱۹٦۵م: ۱۵/۱)

ولقد كان الرضی «فی علاقاته الاجتماعية وفياً إلی أبعد الحدود وهذا ما يفسر إلحاحه الشــديد فی رثا أقاربه وأصدقائه، ولم يكن يقنع فی رثــاء من يحبّهم بقصيدة واحدة –كما جری العرف بين الشــعراء– ولكنه بكی الكثيرين منهم بحرارة وعاطفة جياشة بأكثر من قصيدة، كما فعل فی رثاء ابن ليلی صديقه البدوی، والطائع العباسی، وأبی إسحاق الصّابی، والحمدانی، وبهاء الدوله وغيرهم من أصدقائه.» (أبوعليوی، ۱۹۸٦م: ٤۱٦/۲)

لقــد وجد الشــريف الرضی فی الرثاء متنفســاً لِآلامه وأحزانــه وإخفاقه فی تحقيق طموحــه فی الحياة، يضاف إلی ذلک وفاؤه للذيــن يرثيهم حتی بعد موتهم وإلحاحه فی الحسرة علی فقدهم، كما يضاف إليه منهجه الجديد فی رثائه للحسين بن علی (ع) الّذی كان يفتخر به وبأهل بيته ويذكر قبورهم ويتشوق إليها. هذه العوامل النفسية كلّها دفعت الرضی إلی الإجادة والإكثار فی هذا الفن وامتزج بمأســاة الموت، واســتحقّ أن يسمّی: "النائحة الثكلی". (الصفدی، ۱۹۹۱م: ۳۷٤)

إنَّ مراثــی الرضی –مثل مدائحه– متعددة الأغراض، فالمرثية تتألف من عدة فنون أبرزها: الوصف، والشــكوی، والفخر، والحكمة، فضلاً عن الأبيات المفردة. ويلاحظ أنّ مراثی الشريف كلما كانت متعلقة بشخص شديد الصلة به، كأبيه وأمه، كلما زادت أبيات

الفخر فيها، والملاحظة البارزة أيضا أن الرضی يتفلسف فی مرثيته واعظاً ناصحاً، مفتتحاً بعض القصائد الرثائية بخواطـر الموت وحتميته وعدم الجدوی من البكاء. (أبوعليوی، ١٩٨٦م: ٤٣٢/٢) والرثـاء عنده ليس علی نسـق واحد، فهو يتفـاوت بتفاوت الذين يرثيهم قرباً أو بعداً من نفسه كما يتفاوت عدد الأبيات. مثلا فی رثائه لوالدته كان يرثيها ثم يجـیء بعد رثائها بالفخر، حيث إنّه فی سـنة ٣٨٥ق رثـی والدته فاطمة بنت الناصر بقصيدة مطلعها (الشريف الرضی، ١٣٠٧ش: ١٨/١):

أَبكِيكِ لَـو نَقَعَ الغَليلُ بُكَائِی   وَأَقُولُ لَو ذَهَبَ المَقالُ بِدَائِی

«فتقع فی ثمانية وستين بيتاً تتوزّع علی النحو التالی: ٣١ رثاء، ٢١ وصف، ٩ شكوی، ٦ فخر، ١ ذم الزمان.» (أبوعليوی، ١٩٨٦م: ٤٣١/٢)

ثم يفتخـر بوالدته وبآبائها ويعدّ فضائلهم الأخلاقية وأفعالهم البارزة وأنّهم كانوا قد بلغوا غاية المجد، والفضل، والشـرف ولا يدانيهم أحدهم فی النعمة والجود (الشـريف الرضی، ١٣٠٧ش: ٢٠/١):

آباؤُكِ الغُرُّ الذينَ تَفَجّرت   بهِـم ينابِيعُ مِـن النَّعَمَاءِ

يرثی الشاعر فی هذه القصيدة والدته أوَّلاً ثم يفتخر بآبائها. وأما بالنسبة إلی الآخرين فالحال يختلف، فإذا كان المتوفی مثلاً من أصدقائه أو من الكبار فإنّه يرثيهم أولاً ثم يقوم بوصفهم، كما يرثی أبا طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة الحمدانی فی سـنة ٣٨٢ق بقصيدة مطلعها (المصدر نفسه: ٣٧٨/١):

أَلقِی السِّلاحَ رَبِيعَةَ بنَ نِزارِ   أَودَی الرَّدَی بِقَرِيعِكَ المِغوَارِ

«فتتالف من تسـعة وخمسـين بيتاً تتوزّع علی: ٣٣رثاء، ٢٢ وصف، ٣ شـكوی، ١ مفرد.» (أبوعليوی، ١٩٨٦م: ٤٣٠/٢) فتكلم عن شـجاعته فی ساحات القتال وقال إنّ ساحات القتال لا تری بديله أبداً. ثمّ قام بوصفه بعد أبياته الرثائية وتكلم عن شجاعته وبطول باعه فی معارك الحرب (الشريف الرضی، ١٣٠٧ش: ٣٧٩/١):

مِن مَعشَرٍ غُلبِ الرِّقابِ جَحَاجِح   غَلَبُوا علی الأقـدَارِ والأَخطَارِ

ونسـتطيع أن نقول إنّ مراثی الشـريف الرضی فی أهل البيت (ع) وأسرته تبدأ أولاً بالرثاء ثم الفخر وأما قصائـده الرثائية فی أصدقائه والكبار والعلماء والآخرين يكون

أولاً الرثاء ثم الوصف.

إنَّ الموت عند الرضى حقٌ وهو يعلم أنّ الطريق الوحيدة التى تُهوِّنُ على الإنسان فقد الأحبة هى أن يعلم الإنسان وبكل إيمان أن الأرواح والأجسام ليست غير أمانة وعارية عند الإنسان. (المصدر نفسه: ٢٩٢/١):

نَعُضُّ على المَوتِ الأَناملَ حَسرَةً   وَإن كانَ لا يغنِى غِناءً ولايجدِى
وَهَل ينفَعُ المَكلُومَ عَضُّ بَنانِهِ   وَلَومَاتَ من غَيظٍ على الأَسَدِالوَردِ
عُوارٍ مِنَ الدُّنيا يهَوِّنُ فَقدَهَا   تَيقُّنُنَا أَنَّ العوَارِى لِلرَدِّ

وهو فى شعره الرثائى «لايتعمد الرثاء ككثير من الشعراء إلى العبرة بالدهر والماضى وطلب العزاء وذكر مناقب المرثى، وإنما يشعرك فى أول قصيدة بمصابه هو، وتلتحم المعانى التحاما، فأنت حقّا تستمع إلى النائحة الثكلى.» (محمد حلو، ١٩٨٦م: ٢٣٢/٢)

إنّ من أهم دواعى الحزن والمأساة عند الرضى هو استضراء الفساد الخلقى، والتفكك الاجتماعى، وانتشار الفتن بلحمة المجتمع «ولذا يعكس ببراعة تامة ما كان عليه المجتمع من الغدر، وعدم الالتزام بالعهود، والانحطاط، والدناءة، وما كانت تنطوى عليه ضمائرهم من أضغانٍ وسخائم.» (عزيز، ١٩٨٥م: ٤٤)

لأَى حَبِيبٍ يحسُنُ الرَأىَ والوُدُّ   وَأَكثَرُ هذَا الناسِ لَيسَ لَهُ عَهدُ
أَرَى ذَمِّى الأَيامَ مَا لايضُرُّهَا   فَهَل دَافعٌ عَنِّى نَوَائبِها الحَمدُ
مَا هَذِهِ الدُّنيا لَنَا بمُطِيعَةٍ   وَلَيسَ الخَلقُ مِن مُدارَاتِها بُدُّ
(الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٥٨/١)

الجانب الآخر من رثاء الرضى هو إنّه يستخدم فى قصائده الرثائية، الحكمةَ، والوصفَ، والهجاءَ، والفخرَ فى رثائه ويكوّن قصيدة مزيجة من الفنون المختلفة، مثل الشريف الرضى فى هذا المجال مثل الصيدلى يحسن تركيب الدواء، فهو شخصٌ مسؤولٌ يركّب الدواء بالمقادير معينة ومحدّدة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أنّ الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضاراً أو غير مفيد.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٢١٢/١)

إنّ كتب التاريخ، والسّير، والأدب من عصر الرضى إلى العصر الحاضر متفقةٌ على

أنّه شـيعى إمامى، من أسـرة شـيعية إمامية، ولاغبار على معتقده إطلاقاً، ولكنَّ بعض المؤلفـين رماه بالزيدية والاعتـزال لكى يبرّر طلبه للخلافـة. (عبدالرزاق محى الدين، ١٩٧٧م: ٧٥) يقول الدكتور زكى مبارك: «مثل الشريف بين أهل التشيع كمثل الجاحظ بـين أهل الاعتزال، فالجاحظُ لايدرک مراميه غير الخواص، كذلک الشـريف لايدرک مراميه غير الخواص.» (زكى مبارک، ١٩٣٨م: ٢١٢/١) وله فى بكاء الإمام الحسين(ع) خمـس قصائد طوال جميلـة «الأولى رائية نظمها سـنة ٩٨٧/٣٧٧ والثانية لامية قالها سـنة ٩٩٧/٣٨٧، والثالثة هائية نظمها سـنة ١٠٠٠/٣٩١، و الرابعة دالية قالها سـنة ١٠٠٤/٣٩٥، و الخامسة مقصورة لم يذكر لها تأريخ، و يقال: إنّها آخر ما قاله من الشعر، وإنّها ربّما كانت منحولة.» (أبوعليوى، ١٩٨٦م: ٤٢١/٢) والتشـكيک فى نسـبتها يأتى: من أنّها لينة لا تشـبه شعره. (عبدالفتاح الحلو، ١٤٠٦ق: ١٧٠/١) إنّ الشريف فى أبياته فى رثاء جده سيد الشهداء (ع) يتخذ موقفاً سياسياً ويعرج على بنى أمية، مهدداً متوعداً بيوم عظيم، «فالمهدى المنتظر (ع)» موتور، شـاهراً سيفه فى أقاصى الأرض. و أسلوب الرضى هنا رمزية؛ إذ عبر عمن يخالف العلويين الخلافة بالأموية، سـواء كان بويهيا أم عباسيا (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٣٧٧/١):

بَـنِي أُمَيَةَ مـا الأَسـيافُ نائِمَةٌ   عَنْ شَاهِرٍ فِي أَقاصِي الأَرضِ مَوتُورِ

المعانى المطروحة فى قصائد الشريف الرضى الرثائية

١. الشـكر: من المعانى الرثائية المطروحة فى شـعر الشريف الرضى إنّه كان يعادى، ويصادق، ويعى حقوق الأصدقاء كاملاً ويعاملهم أحسن معاملة، و يحفظ كرامة الصديق فى حضوره وغيبته (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٦١/٢):

أنا مَـولَى العِدَى وَإِن   كُنُتُ عَبـدَ الأَصادِقِ

كمـا يلاحظ هـذا الإيفاد والاحتفـاظ فى حق صديقه أبى إسـحاق الصابى ويبقى الشـريف يذكر صديقـه بأحقّ الذكر ولمّا مـات الصابى رثّاه أكثر من مـرة، مع ماكان بينهمـا مراتب من الاختلاف فى العقيدة؛ لأنّه لم يكن مسـلماً وكان يدين بدين الصابئة (كحالـة، ١٣٧٢ش: ١٢٤/١؛ التونكـى، ١٣٤٤ق: ٤٦٧/٤) وكان كلما رثّاه نصّ على قلمه وبلاغته (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٩٦/١):

ثَكَلَتکَ أرضٌ لمَ تَلِد لَکَ ثانیاً　　أَنَّی ومِثلُکَ مُعوِزُ المِیلادِ
مَن لِلبَلاغَةِ والفَصَاحَةِ إن هَمَی　　ذاکَ الغَمامُ وعَبَّ ذاکَ الوَادِی

وتستمرّ هذه الرابطة ویدلّ علی عمق هذه الرابطة بالمشاعر النابضة وحین یمرّ بعد عشر سنوات علی قبر صدیقه، ولا شک أنّه دارس فتثیر فیه عهود الصداقة العواطف الّتی تفیض بداهة، و ما أحلی ماینشدُ (المصدر نفسه: ۵۷۱/۲):

لَولا یذَمُّ الرَکْبِ عندکَ مَوقفی　　حَییتُ قَبرَکَ یا أبا إسحَاقِ
کَیفَ اشتِیاقُکَ مُذ نَأَیتَ إلی أَخٍ　　قَلَقِ الضَمیرِ إلیکَ بِالأَشوَاقِ
أَمضَی وتَعطِفُنِی إلیکَ نَوَازِعٌ　　بِتَنَفُسٍ کَتَنَفُسِ العُشَاقِ

ولا یفوتنا بأنّ اهتمام الرضی بمدح ابن جنّی ورثائه موصول الأواصر بحیاته الأدبیة فقد کان ابن جنی، أستاذ الرضی شرح قصیدته الرائعة فی رثاء إبراهیم بن ناصرالدولة الحمدانی، وهذا مطلعها (المصدر نفسه: ۳۷۸/۱):

أَلقِی السِّلاحَ رَبِیعَةَ بنَ نِزارِ　　أَودَی الرَّدَی بِقَرِیعِکَ المِغوَارِ
وتَرَجَّلَی عَن کُلِّ أَجرَدَ سَابِحٍ　　مِیلَ الرِّقَابِ نَوَاکِسَ الأَبصَارِ

إنّ الشریف الرضی قد مدح ابن جنی ورثّاه؛ لأنّه شرح إحدی قصائده فی الرثاء وکذلک فعل مع الصاحب بن عباد، فقد بلّغه أنّ شیئاً من شعره وقع إلیه فأعجب به وأنفذ إلی بغداد لاستنساخ سائر شعره فلما بلّغه ذلک أخذ منه الطرب کل مأخذ، ومدح الصاحب بن عباد بقصیدة بارعة ولکنّه أخفاها منه خوفاً من طلب العطاء به (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۲۲۵/۱):

بَینِی وبَینَکَ حُرمَتَانِ تَلاقَتَا　　نَثرِی الّذِی بِکَ یقتَدِی وقَصِیدِی
إن أُهدِ أَشعَارِی إلیکَ فَإنَّهُ　　کَالسردِ أُعَرِضُهُ علی دَاوُدِ

والرضی یقتدی به فی شعره ونثره فبینهما صلات الأدب، فإذا أهدی إلیه أشعاره فکأنه یعرض السّرد علی داود.

۲.الالتزام بالتشیع: یزخر دیوان الشریف بقصائد الرثاء وإلی جانب رثائه فی الأصدقاء والأحباء، ظهرت قصائده الرثائیة تفیض بالعواطف والمشاعر الجیاشة، وقدّم قصائد رائعة فی رثاء الإمام الحسین (ع): تلک المراثی القلیلة الّتی تجعل الشریف

الرضی تبرز بين معاصريه وشـعراء الشـيعة. وعندما ننظر إلی هـذه القصائد نری فيها طبيعة التفكر الشيعی (المصدر نفسه: ۱/ ۳۳):

كَربَلا لازِلـت كَرباً و بَلا   مَالَقِی عِندَکَ آلُ المُصطَفَی
كَم علی تُربِکَ لَما صُرِّعُوا   مِن دَم سَالَ وَمِن دَمع جَرَی

فالشريف الرضی شاعرٌ شـيعی ملتزمٌ مؤمنٌ بمذهب آل البيتً (ع) ويعمل علی نشر فضائلهم ويتألم لآلامهم، ولكنّ ذلک لا يمنعه من احترام الآخرين وتجليلهم وينشد عن "الغدير" (المصدر نفسه: ۱/ ۳۳۰):

غَدَرَ السُـرُورُ بِنَا ووَفاؤُهُ يومَ الغَدِير   يومَ أَطَافَ بِهِ الوَصِی وقَد تَلَقَّبَ بِالأَمِيرِ

وفی موضع آخر نجده يمدح الفاطميين رغم أنه كان يعيشُ فی دولة العباسيين. (المصدر نفسـه: ۲۳۸/۱) ولعله يكون صحيحـاً ما قيل «إنَّ اهتمامه بشـرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحضٌ للمفتريات الّتی وجّهت إلی التشيع والّتی ادّعت أنّ الشيعة لا يهتمون بالقرآن والحديث.» (زكی مبارک، ۱۹۳۸م: ۱/ ۲۱۲) ومن هنا نفهم أنّ الشـريف الرضی كان معلماً عظيماً وكان من الساهرين علی رعاية الوحدة الاسلامية. يقول الدكتور عبداللطيف عمران: «إنّ الشـريف الرضی موضوعی فی تشـيعه، بعيدٌ عن الفـتن والميول الذاتية، إنّه مسـلمٌ فی الدرجة الأولی، يری فی الرسـول(ع) أوّل عظماء المسلمين وأفضلهم ويری فی علیّ (ع) الرجل الثانی وهذه الموضوعية لم تصرفه عن مدح أو رثـاء بعض خلفاء بنی العباس كمدح الخليفـة الطائع ورثائه.» (عمران، لاتا: ۲۳۹) إنّ الشـريف الرضی فی سبيل تشيعه يهجو بنی أمية ويقول: «إنّ الخلافة أصبحت بعيدة عن الشعب منعزلة عن الناس والمجتمع قد استولی علی منابرها الأمويون.» (نورالدين، ۱٤۱۱ق: ۱٤۰) كما نری هذا المعنی فی أشـعاره فی رثاء الإمام الحسـين(ع) (الشريف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱/ ۲۸۰):

إنَّ الخلَافَـة أَصبَحَـت مَزوِيـةً   عَن شَـعبِهَا بِبَياضِهَا وسَـوَادِهَا
طَمَّسَـت مَنابِرَهَا عُلُـوجُ أُمَيةِ   تَـترُوا ذِئابهـمُ علـی أَعوَادِهَا

۳.تعـداد خصال الفقيد وصفاتـه: رثّی الرضی عمر بن عبـد العزيز من ملوک بنی أمية؛ لأنّه تفرّد بالصلاح، والعدل، وجميل السيرة من أهل بيته، كما أثنی علی رفقه بأهل

البيت(ع) وأشار إلى منعه لتلك العادة الّتى درجت فى عهد الأمويين، وهى سبّ الإمام على بن أبى طالب(ع) على المنابر، بقوله (المصدر نفسه: ١٦٩/١):

يا ابنَ عَبدِالعَزيز لَو بَكَتِ العَيـ ـنُ فَـتَى مِن أُمَيـةٍ لَبَكيتُک
أَنتَ نَزَهتَنا عَن السَبِّ والقَذ فِ، فَلَو أَمكَنَ الجَزَاءُ جَزيتُک

رثى الرضى أبا على الحسن بن أحمد الفارسى النحوى وأشاد فيها بقوة الفارسى فى مقارعة الخصوم. وفى مرثيته لشرف الدولة البويهى المتوفى سنة ٣٧٩ق ذكر الشريف فى رثائه مجده عليه وعلى أبيه (المصدر نفسه: ٨٤١/٢):

أَعَادَ عِـزَّ أَبِى غَضّـاً وخَوَّلَهُ مَا شَاءَ مِن بَذلِ إعزَازٍ وإكرَام

وفى رثائـه لصديقه أبى منصور المرزبان الكاتب الشـيرازى توقف الرضى عند أيام الصداقة وحنَّ إلى المجالس الأدبية الرائعة (المصدر نفسه: ١٢٤/١):

كَـم مَجلِـسٍ صَبَّحَتهُ ألسُـنُنا تَفُـضُّ فِيـهِ لَطائِـمَ الأَدَبِ

وبموته غاض غدير الكلام، وهوى علم المجد وكان قرينه ونسيبه (المصدر نفسه: ١٢٤/١):

كُنتَ قَرينِى ولَسـتَ مِن لِدَتى كُنتَ نَسِيبِى ولَستَ مِن نَسَبى

وفى مراثيه الثلاثة لصديقه الكبير أبى إسحاق الصابى، شبّهه بالمرثية الأولى بالطود الشامخ، وبالضياء المنير (المصدر نفسه: ٢٩٤/١):

أعَلِمتَ مَن حَمَلُوا على الأَعوَادِ أَرَأَيتَ كيفَ خَبَا ضِياءُ النَّادِى

وفى مرثيته لأمّه عدّد الرضى لنا صفاتها ومناقبها فهى: عفيفة زاهدة مؤمنة، اشترت رغد الجنان بعيشة خشناء، فهى أمّ بارّة، فضلها خالد ومعروفها لا يقدّر (المصدر نفسه: ١٩/١):

لَـو كَانَ مِثلُـک كُلُّ أُم بَـرَّةٍ غَـنِى البَنونُ بِهَا عَـنِ الآبَاءِ
كَيفَ السّـلوُّ وكُلُّ مَوقعٍ لحَظَةٍ أَثَـرٌ لِفَضلِک خَالِـدٌ بإِزَائى

إنّها نجيبة ولدت النجبـاء، وآثار أيديها البيضاء تظهر فى الضيق والأزمات ثم مدح آباءها وافتخر بهم. وفى مراثيه لوالده عدّد الرضى مناقبه، فقد مضى الموسوى نقى الثوب والعود، فقد أغمد المهنّد فى الثرى بعد أن ملأت فضائله البلاد (المصدر نفسه:٧٣٩/٢):

حَمَـلَ العَظَائمَ والمَغَـارِمَ ناهِضاً ومَضَى على وَضَحِ الطَرِيقِ الأَقوَم

ثم مدح فضله وأعماله المجيدة وافتخر به فكان يرتجى فى الملمّات لرأب الصّدع، فهو الطاهـر بن الطاهر يصل إلى جـذم النبوّة، كما افتخر بآبائه ومكانتهم، وبلغ الفخر مداه

بقوله (المصدر نفسه: ٧٤١/٢):

لا تَحسَبنَّ جَدَثاً طَوَاهُ ضَرِيحُهُ   قَبراً، فَذَاکَ مَغارُ بَعضِ الأَنجُمِ

٤. التعزية والمواســاة: «لجأ الرضى فى معظم مراثيــه إلى تعزية ذوى الفقيد، وأقاربه، وأصدقائه، ومواســاتهم، متسائلاً عن مصير القرون والعظماء. ففى تعزيته للخليفة الطائع عن ابنه أبى الفتح، دعاه إلى الصبر والسلوى؛ لأنَّ الابن يمكن أن نجيء بمثله، بينما الخسارة الحقيقية هى خســارة الآباء.» (أبوعليوى، ١٩٨٦م: ٤٤٧/٢) ويعتقد الشريف الرضى بأنّ العزاء الحسن يكون بحسن استخدام العقل (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٦٦٣/٢):

إذا لم يكُن عَقلُ الفَتَى عَونَ صَبرِهِ   فَلَيسَ إلى حُســنِ العَزاءِ سَبِيلُ

لعلَّ الشريف الرضى بهذا البيت يشير إلى تأثره بلامية السموأل بن عادياء المشهورة "إنّ الكرام قليلُ" وهو شاعرٌ يهودى عاش فى العصر الجاهلى. و فى مرثيته للصاحب بن عباد، تســاءل الرضى فيها كيف طوى الموت الأمم الغابرة، والملوک، والسّادة من نِزار، ويمن، وبنى المنذر، والفرس. كذلک فى مرثيته لأســتاذه ابن جنّى، فقد شــكا من الفناء، ومضى مكثراً من تسائله «أينَ؟» مثل قوله (المصدر نفسه: ٥٦٣/٢):

فَأَينَ المُلُوکُ الأَقدَمُونَ تَسَانَدُوا   إلى جِذمِ أَحسَابِ كِرامِ المَعَارِقِ

هكذا ساقَ الرضيُّ الحكمةَ والموعظة وأورد الحججَ المنطقية ليدخل العزاء والسلوان إلى قلوب المفجوعين بموت أحبتهم وأعزّتهم.

٥. فــداء الرّاحــل وتحدّى الموت: كثيراً ما يتمنى الشــريف الرضــى دفع الموت فى مرثياته وفداء الرّاحل أو الرّاحلة بنفســه، أو بفتيانــه المدجّجين والمجرّبين فى الحروب وســاحات الوغى، فكأنّه يتصدى الموت بقسوته. و نرى هذا المعنى فى رثاء صديقه أبى إســحاق الصابى ويكرر نفســه فى رثاء أمه، فتمنى لو كانت تفدى، إذن لفداها بالفتيان المدرّبين على القتال، كما تمنّى أن يفديها بنفسه. وفى مرثيته لصديقه عبدالعزيز بن يوسف الحكّار افتتحها بقوله (المصدر نفسه: ٤٧٩/١):

لَوكَانَ يرتَدِعُ القَضَاءُ بمُردِعٍ   أو ينثَــنِي بمُدَجَّــجٍ ومُقَنَّعِ

فقد جاءَ بالمعنى الّذى استغلّه كثيراً من قبل، وهو تمنّية أن يفدى الرّاحل، إذن لدافع عنه بالفرسان المدجّجين بالسِّلاح.

٦. الموت وحتميته فى شعر الشريف الرثائى: كفاكم قول الشريف بأنّ الموت لامحالة قادمٌ، وكلّنا سنموت؛ وليس هناک تفضّل مُثرعلى فقيرٍ، ولكلّ واحد منّا عند الموت كفنٌ واحدٌ، وبذلک لايظلم الموت أحداً:

ألا يا مَوتُ لم أرَ مِنکَ بُدّاً أَتَيتَ، وَمَا تَحِيفُ وَمَا تُحَابى

«ترتبطُ أفكار الرضى عن الزمن مأســاويته ارتباطاً قوياً بأفكاره عن الموت، بل إنّ الشاعر المرهف الحساس والمبدع يرى فى الموت السبب الأوّل لاغترابه الروحى يتحدث عن الموت.» (عزيز، ١٩٨٥م: ٣٥) الموت حتمى على كلّ نفس، فهو يغزو بجيشه كلّ يوم، ولا يرضى بالفداء، أو بالأسرى والسَّبايا (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٩٧٣/٢):

مُغيرٌ لايفادَى بِالأَسَارَى وسَابٍ لا يُمُنُّ على السَّبايا

كثيراً ما يدعو الرضى إلى النّفور من الدنيا وتركها، وعدم التّعلق بأثوابها وزخرفها، فهو يراها امرأةً كثيرةَ الأزواج (المصدر نفسه: ١٨٦/١):

إنِّى إذا حَلَــب البَخِيــلُ لُبَانَهَــا أُمسِــيتُ أَحلِبُهَــا دَمَ الأَودَاجِ
خَطَبَتنِى الدُّنيا فَقُلتُ لَهَا ارجِعِى إنِّى أَرَاکِ كَثِــيرَةَ الأَزوَاجِ

كما يبدأ مراثيه بخواطر فلسفية وحكمية حول حتمية الموت وقسوته، والشكوى من صروف الدَّهر، وعدم جدوى البكاء والعويل كما فى مرثيته لعمر بن إسحاق بن المقتدر المتوفى سنة ٣٧٧ق (المصدر نفسه: ٦٦١/٢):

أَيرجِــعُ مَيتــاً رَنَّــةٌ وعَوِيلُ ويشفِى بِأَسرَابِ الدُّمُوعِ غَلِيلُ

حيث تحدّث بإطناب عن مصير الإنسان فالعمر قصير ولن ينال الفتى فى العيش فوق عمره كما أنّ الفناء غاية الناس جميعاً. إنّ الشــريف الرضى نثر شــيئاً من فلسفته حول الموت وحتميته، وبطشه، وقسوته فى رثائه لأبى طاهر إبراهيم بن ناصرالدولة الحمدانى المتوفى سنة ٣٨٢ق كقوله (المصدر نفسه: ٢٨٣/١):

تَفُوزُ بِنَا المَنُونُ وتَســتَبِدُّ ويأخُذُهَا الزَمَانُ ولايردُّ

هكذا يبدو لنا الشريف الرضى فى مراثيه حكيماً واعظاً أمام مأساة الموت.

٧. الدعاء بالاستســقاء لقبر المرثى: من ســنن العرب المألوفــة دعاؤهم لقبر الميت بالاستســقاء بعد أن يدفــن فى القبر، منها قــول متمم بن النُوَيرة فى رثــاء أخيه مالک (البستانى، ١٩٨٦م: ٦٥/٢):

سَقَی اللهُ أرضاً حَلَّها قَبرُ مَالِکِ　　رَهَامَ الغَوادِی المُزجَیاتِ، فأَمرَعَا

یقول: سقی الله تربة مالک بدیم السّحب الغوادی فتخصب تربته. فی هذا المجال تأثر الرضی بتقالید القصیدة الجاهلیة ودعا بسقیا لقبر المیت علی طریقة الجاهلیین فی مراثیهم فکان تقلیدیاً فی هذه الناحیة وسار علی منوالهم، کمایقول فی قصیدة یعزی أخاه عن ابنة له توفیت، منها (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۲۷/۱):

أَرَابَ مِن یومکَ مَا أَرَابا　　لازِلتُ أَستَسقِی لَکَ السَّحَابَا

کُلّ أَغَرٍّ یدِقُ الذِّهَابَا　　مُجَرِّراً علی الرُّبَی أهدَابَا

یوم وفاتک ألقی ریباً عظیماً فی قلوبنا وأنا لا أَزالُ أدعو وأتمنی من السُّحُب الممطرة أَن تَسقِی ترابک، ثم شبّه الشریف الرضی هذه السُّحُب الممتلئة بالماء، بالنساء الحبلیات اللاتی یجررن أَهدَاب ملابسهن علی الأرض لشدة امتلائها بماء المطر.

۸. الشکوی من الزمان: «إنّ الشریف الرضی یری الدّنیا بعین الرجل المثقف، المثقف الشریف، لا المثقف الصعلوک.» (زکی مبارک، ۱۹۳۸م: ۴۹/۱) ولذلک نراه یبین أنّ الدّهر والزمان لیسا ملامین علی موت الإنسان، بل مکلفّان من جانب ربّهما القدیر والجلیل لأداء واجبهما وهو الموت (المصدر نفسه: ۱۲۵/۱):

لا لَومَ لِلدَّهرِ و لا عِتَابَا　　تَغَابَ إنَّ الجَلدَ مَن تَغابی

صَبراًعلی الضَّراءِواحتِسَابا　　أَصبَرُنا أَعظَمُنا ثَوَابا

ویتحدثُ عن الصبر والتغافل عبر هذه الفاجعة ویرینا انصباب الدموع وغلیان الغم فی القلوب لأجل الفقید والمیت؛ وحال کون الدّهر یقوم بعمله ولا یرجع المرثّی بالبکاء والعویل. کما یقول فی موضع آخر فی القصیدة (المصدر نفسه: ۱۲۷/۱):

وإن لَبِستَ للبِلَی جِلبَابَا　　أری البکاءَ سَفَهاً وعَابا

لاتَجعَلَنُه دَیدَناً ودَابَا　　وافَقَ مِنّا أجَلٌ کِتابَا

«لم یقتصر الرضی فی بثّ شکواه وذم زمانه علی القصائد المستقلّة، بل ظهرت الشکوی فی قصائد ذات أغراض متنوعة، فکثیراً ما یذُمُّ زمانه ویتحدّثُ عن قلّة الحظّ وعن خیبة الآمال ویغتنم فرصة مدح سلطانٍ أو خلیفة أو رثاء میتٍ من أسرته لِیشیر إلی أنّه لم یعط ما هو أهلٌ له وأنَّ الأیام قد ظلمته وأحداث الدّهر وقفت فی وجه طموحاته.» (عمران، لاتا: ۲۰۷)

إنّ من عادات الدّهر فی مخيلة الرضی الغارةُ والشَنُّ حين يترصد الإنسان لِيغيرَ عليه ويجذبه فی فرصة ملائمة ومناسبة من حيث لا يفهم، مشيراً إلی هذا المضمون فی شعره (الشريف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۲۸/۱):

وَقَد شَنَّ فِيهَا حَادِثُ المَوتِ غَارَةً   تَنَتنا ولمَ تُطلِع إلَينا كَتائِبَا

يتحدثُ الشريف الرضی فی كل موضع من أشعاره عن صفة ملائمة للدّهر علی حسب مقتضی الحال والمقام، كما يتصف الدّهر بصفات مختلفة تارةً كـ"الدَّهر الغَلَّاب" (المصدر نفسه: ۱۲۵/۱):

أَمضَی الزَّمانُ حُكمَهُ غَلَّابَا   أَصَابَنا وطَالَ مَا أَصَابَا

يشبّه الشريف الرضی فی هذا المجال الدّهر الغلاب بالحاكم الّذی يجری ويمضی حكم الموت فينا ويصيبنا بالفاجعة وما يكون أطول هذه الفاجعة بالنسبة إلينا. وتارةً يسمّيه "الدَّهر الغَالِب" ويقول عندمايفاجئنا ويهجم علينا الموت لايدفعه البوّابون والحُجاب (المصدر نفسه: ۱۱۱/۱):

كَذَا يهجُمُ القَدَرُ الغَالِبُ   وَلَايمنَعُ البَابُ والحَاجِبُ

وفی موضع آخر يصفه بـ"الدّهر الخَؤُون" من خلال ديوانه (المصدر نفسه: ۱۱۸/۱):

لُزِزنَا مِن الدَّهرِ الخَؤُونِ بِمَصدَمٍ   يحَطِّمُ أَشلَاءَ القَرينِ المُجَاذِبِ

إِنَّ هذه الصفات كلّها تظهر سمة من سمات الدّهر لشكواه وانزجاره منه، ليشكوا ممّا فی باطنه من أحداث الزّمان وموج الهموم. إنَّ الدّهر عند الرضی من المعنويات المجردّة، والرضی يجسّمه إنساناً فی عالم الواقع ويصفه بصفة الخؤون. لقد جاء الرضی بهذا الوصف ليؤكد علی تصويره فی ذهن المتلقی، ثمّ يصوّر له قدرة الكفاح علی رقيبه، ولايبقی قريناً إلا يحطّم أعضاءه وجوارحه فی هذا الكفاح.

النتيجة

- لقد اتّضح أنّ الشريف الرضی كان شاعراً مجيداً مكثراً بارعاً فقيهاً مبدعاً تميز شعره بجودة الألفاظ، وحسن الصياغة والديباجة، والخُلُوّ من عيوب التعبير أو ساقطات اللغة، متفوقاً بذلک علی معاصريه أمثال المتنبی وغيره. وقد أجاد فی كل قصائده خاصةً رثائياته فی الإمام الحسين بن علی(ع)؛ وقد حذا حذوه فيها كثير من الشعراء لاسيّما

شعراء الشيعة الذين يتفجعون على مقتل الإمام الحسين(ع)، حيث كانوا يحفظون أشعاره وينشدونها.

– إنّ مراثيه تنقسم بشكل عام إلى قسمين: رثاء أسرته وأهل بيته، ورثاء الأصدقاء، والملوک، والأعيان. وهو فی رثائه لأسرته وأهل بيته، يبتدأ برثاء أبيه، وأمه، وأهل البيت(ع) ثم يتطرق إلى الفخر بهم؛ أمّا فی قصائده الرثائية للأصدقاء، والملوک، والأعيان أوّلاً يرثيهم ثم يقوم بوصفهم.

– عندما ننظر إلى أشعار الشريف الرضی من الناحية الفخرية والرثائية نراها تفوح منها الرائحة السياسة غالباً، وأنّ أشعاره لم تكن للتكسب بل وسيلة إلى أغراضه السياسية لاسيما فی مرثياته عندما كان يعبّر عمن يخالف العلويين بالأموية ويتخذ موقفاً سياسياً إزاء هذه القضية ويغير على بنی أمية بأسلوبٍ رمزی، ويدعوهم غاصبی الخلافة.

– إنّ الرضی هو شاعر الرثاء الذی وجد فی الرثاء طريقاً أفضل للوصول إلى هدفه، وقد أعانته على ذلک عبقريته الفذّة، وما أصابه من الآلام والمصائب بسبب فقدان أعزائه وأصدقائه، ورثاؤه يحتوی على فنون أخری من الفخر، والوصف، وغيره بحيث يمکن القول إنه بقصائده الرثائية ينظم أشعاراً کاملة.

– إنّ رثاء الرضی ليس على نسق واحد، فهو يتفاوت بتفاوت الذين يرثيهم قرباً أو بعداً من نفسه، کما أنّ أساليبه فی الرثاء کانت کذلک. لعلّ أکبر عنصر متغير فی مراثيه هو ملاءمة المرثية لمقتضی الحال أی إنّه يراعی ما يلائم شخصية المرثی من أوصاف وحدود، سواء کان الراحل فارساً أو کاتباً أو شيخاً نحوياً، رجلاً کان أو امرأةً، حضرياً أو بدوياً.

– لم يکن الرضی يلتمس الشهرة من رثاء الرجال المرموقين البارزين، بل کان يرثی حتی المغمورين من أصدقائه ممّن لم يشغلوا مناصب هامة. وتتجلّی الشجاعة فی رثائه لأشخاص غضبت عليهم السياسة وانقلب الناس ضدهم، بينما بقی الرضی على وفائه وإخلاصه لهم کرثائه للطائع لله الخليفة المخلوع، ولأبی بکر بن شاهويه زعيم القرامطة فی بغداد. ولهذا الحزن الذی شغل الرضی فی حياته، وللرّقة الحزينة التی تتغلغل وتنساب فی قصائده سمّاه الأدباء "نائحة الثکلی".

المصادر والمراجع

ابن أبي الحديد. (١٩٦٥م). شـــرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. الجزء الأوّل. ط٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

ابن الأثير. (١٩٦٦م). الكامل في التاريخ. الجزء الخامس. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

ابن الجوزي. (١٩٣٩م). المنتظم. الجزء السابع. ط١. حيدرآباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية.

ابن خلــكان. (لاتا). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: الدكتور إحســان عباس. الجزء الرابع. بيروت: دار صادر.

ابن سينا، ابوعلي حسين بن عبدالله. (١٩٦٩م). المجموع أو الحكمة العروضية. تحقيق: محمد سليم سالم. لامک: لانا.

ابن عنبه، أحمد بن علي بن الحسين الحسني. (لاتا). عمدة الطالب. بيروت: دار مكتبة الحياة.

أبو عليوي، حسن محمود. (١٩٨٦م). الشريف الرضي. لبنان: مؤسسة الوفاء.

الباخرزي، أبو الحسن. (١٩٨٥م). دمية القصر. الجزء الأوّل. الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع.

البستاني، فؤاد أفرام. (١٩٨٦م). المجاني الحديثة. الجزء الأول. ط٣. بيروت: دار المشرق.

التونكي، الشيخ محمود حسن. (١٣٤٤ق). معجم المصنفين. الجزء الرابع. لامک: لانا.

الثعالبي. (١٩٨٣م). يتيمة الدّهر في محاســن أهل العصر. تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة. الجزء الأوّل. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.

الحوفي، أحمد محمّد. (١٩٧٩م). أدب السياسة في العصر الأموي. مصر: دار نهضة لطبع ونشر.

الديلمي، مهيار. (لاتا). ديوان. المجلّد الأوّل. ط١. لامک: لانا.

الرافعي، مصطفى صادق. (١٩٧٤م). تاريخ آداب العرب. الجزء الثالث. بيروت: دار الكتاب العربي.

الزبيدي. (١٤٢٢ق). تــاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: عبد الكريم الغرباوي. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدّم العلمية.

الزوزني، الحســن بن أحمد. (٢٠٠٦م). شرح المعلقات السبع. تحقيق: محمّد الفاضلي. ط١. طهران: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.

الزيات، أحمد حسن. (لاتا). تاريخ الأدب العربي. بيروت: دارالمعرفة.

الشريف الرضي، أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى. (١٣٠٧ق). ديوان. مع دراسة وضيافة بقلم الشيخ عبدالحسين الحلي. بيروت: المطبعة الأدبية.

الشــريف الرضي، أبوالحســن محمد بن الحســين بن موســى. (١٩٧٦م). ديوان. صنعة أبي حكيم الخبري. تحقيق: عبدالفتاح الحلو. الجزء الأوّل. ط١. باريس: دار الطليعة.

الشــريف المرتضي، أبوالقاسم علي بن حســين بن موسى (١٩٩٧م). ديوان. شرحه محمد التونجي. الجزء الثاني. بيروت: دار الجيل.

الصفـدى، صلاح الدين خليل بن أيبک. (١٩٩١م). الـوافى بالوفيات. المجلد الثانى. بيروت: دار الكتب العلمية.

ضيف، شوقى. (٢٠٠٧م). تاريخ الأدب العربى. عصر الدول والإمارات. الجزء الخامس. القاهرة: دار المعارف.

عزيز، جاسم. (١٤٠٦ق). الاغتراب فى حياة وشعر الشريف الرضى. بيروت: دار الأندلس.

عمران، عبداللطيف. (لاتا). شعر الشريف الرضى ومنطلقاته الفكرية. دمشق: دار الينابيع.

الفاخورى، حنا. (١٣٧٨ق). تاريخ الأدب العربى. ترجمة: عبد المحمد آيتى. ط٤. طهران: طوس.

فروخ، عمر، (١٩٧٩م). تاريخ الأدب العربى. الجزء الثالث. ط٧. بيروت: دار العلم للملايين.

كحالة، عمررضا. (١٣٧٦ق). معجم المؤلفين. الجزء الأوّل. لامک: لانا.

مبارک، زكى. (١٩٣٨م). عبقرية الشريف الرضى. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

متز، آدم. (لاتا). الحضارة الاسـلامية فى القرن الرابع الهجرى. ترجمة: محمد عبد الهادى أبوريدة. الجزء الأوّل. ط٣. لامک: لانا.

المتنبى، أبوطيب. (٢٠٠٩م). ديوان. راجعه وفهرسـه: د. يوسـف الشيخ محمد بقاعى. بيروت: دار الكتاب العرب.

محمد حلو، عبد الفتاح. (١٩٨٦م). الشريف الرضى حياته ودراسة شعره. القسم الثانى. لامک: لانا.

محى الدين، عبدالرزاق. (١٩٧٧م). أدب المرتضى من سيرته وآثاره. ط١. بغداد: مطبعة المعارف.

نورالدين، حسن جعفر. (١٤١١ق). الشريف الرضى حياته وشعره. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية.